

نظريات اكتساب اللغة الام

لقد صاغ علماء النفس مجموعة من الفروض أو النظريات تضع في اعتبارها عناصر خاصة للنمو اللغوي تتراوح من الأسباب البيولوجية الى النظريات التي تؤكد على خبرات الأطفال في البيئة. وعلى الرغم من أن الباحثين لا يختلفون اختلافاً بيناً في المراحل التي يمر بها الطفل في اكتساب لغته الأم، ولكنهم يختلفون في تفسير هذه المراحل، وتحديد العوامل التي تتحكم في هذا الإكتساب و تؤثر فيه وذلك نتيجة لإختلاف مشاربهم وتنوع مذاهبهم ونظرياتهم في النظرة الى طبيعة اللغة و أساليب اكتسابها. ومن أبرز النظريات التي اعتمد عليها الباحثون على تفسير اكتساب اللغة هي:

١- النظرية السلوكية.

٢- النظرية الفطرية.

٣- النظرية المعرفية/الوظيفية.

وفيما يلي شرح موجز عن كل من هذه النظريات.

النظرية السلوكية Behavioral Theory:

المبدأ الأساس الذي اعتمدت عليه هذه النظرية في تفسير اكتساب اللغة هو أن الطفل يولد وعقله صفحة بيضاء، خالية من المعلومات اللغوية، وان البيئة التي ينشأ فيها تسطر في هذه الصفحة ما تشاء. و أبرز علماء النفس السلوكيين بروس سكينر Skinner، الذي فصل آراءه في كتابه "السلوك اللغوي" عام ١٩٥٧م. وتتلخص آراءه في أن اكتساب اللغة لا يختلف عن اكتساب أي سلوك آخر أو تعلمه، فتعلم اللغة لا يختلف عن تعلم كرة القدم و السباحة و الضرب على الآلة الكاتبة و نحو ذلك. ويرى ايضاً أن اكتساب اللغة تعتمد على التقليد و المحاكاة من الطفل لألفاظ الكبار ثم التدعيم والتعزيز من قبل الكبار لما يصدر عن الطفل سواء أكان تعزيزاً إيجابياً كلما نطق نطقاً سليماً أو تعزيزاً سلبياً كلما نطق نطقاً خاطئاً كالتخطئة و العقاب (تعزيز سلبي مباشر) أو إهمال الرد أو عدم تلبية طلبه (تعزيز سلبي غير مباشر). ففي نظر سكينر التعزيز الإيجابي يثبت السلوك اللغوي و التعزيز السلبي يساعد على مسح هذا السلوك و استبعاده من ذاكرته.

و قد وجهت لهذه النظرية انتقادات لاذعة ومنها مايلي:

- انتقد تشومسكي هذه النظرية في كونها ترى أن اكتساب اللغة يعتمد على ملاحظة الصغار لكلام الكبار وتقليدهم له، و نقد تشومسكي الموجه لذلك هو أننا لا نستطيع أن نعلل العدد الكبير من الجمل الجديدة تماماً التي يأتي بها الأطفال، مما لا شبيه له فيما يقوله الكبار، أي أن الأطفال يلفظون جملاً لم يسمعوا بها من الكبار.

- اما كلارك وكلارك فقد وجهوا نقدهما لأثر التعزيز الذي تتبناه هذه النظرية. اذا أن الآباء قلما يوجهون اهتماما لما يقع في اطفالهم من أخطاء في قواعد التركيبات اللغوية. ومعنى ذلك أن الآباء لا يقدمون لأطفالهم الحد الأدنى من التعزيز الذي تفترضه النظرية السلوكية كضرورة وجوده في أي عملية تعلم.
 - ومن الانتقادات التي وجهت ايضا لهذه النظرية أن الطفل يكون سلبيا خلال عملية تعلم اللغة، فالطفل يبدأ الحياة بجعبة لغوية خاوية ثم يصبح الطفل مستخدما للغة حينما تمتلئ الجعبة بالخبرات التي توفرها النماذج اللغوية في بيئته.
- لاشك أن التعزيز والتقليد يلعبان دوراً في النمو اللغوي إلا أنه بالرغم من ذلك فإنه من الصعوبة أن ينظر إليهم باعتبارها التفسير الوحيد لنمو الطفل اللغوي.

النظرية الفطرية Innateness Theory:

ظهرت هذه النظرية كردت فعل على اراء النظرية السلوكية على يد اللغوي المعاصر تشومسكي والذي أعلن عن آرائه اللغوية في كتابه "الأبنية التركيبية" الذي أصدره قبل أكثر من خمسين عاما تقريبا. ويرى تشومسكي أن الطفل يولد ولديه فطرة لغوية. وهي تلك الملكة التي منحها الله للإنسان فاستطاع عن طريقها انتاج و توليد اللغة. وقد فسر تشومسكي عملية اكتساب اللغة عند الطفل من خلال ما اسماه " القواعد الكلية وتحليل المعلومات". ويقصد بذلك قواعد و مبادئ موجوده عند جميع الأطفال مهما اختلفت لغاتهم وتنوعت بيئاتهم و ثقافتهم. ويقوم عقل الطفل باختزال المعاومات و تحليلها و القياس عليها، ومن ثم يستطيع من خلال سماعه لعدد محدود من الجمل توليد ما لا يحصى منها. وهذه المقدرة التي حباها الله للإنسان دون سائر الحيوان لا يخص بها جنس دون جنس، ولا أقوام دون آخرين ومن ثم فإنها تأخذ طابع العالمية.

ويتبين مما سبق أن نظرة تشومسكي إلى عملية اكتساب اللغة تختلف كلياً عن النظرة السلوكية، التي ترى أن عملية الاكتساب تتم تدريجياً من خلال لا شيء، أو من خلال "دماغ فارغ"، وبواسطة الاستقراء والتعميم، وبدون أية ضوابط بيولوجية. ويرى الفطريون و على رأسهم تشومسكي أن الدخل اللغوي وحده لا يبني اللغة كما يعتقد السلوكيون، و إنما هو زناد يحرك القدرات اللغوية الفطرية الكامنة في عقل الطفل، ويشكل مدخلا يستعين به الطفل على بناء فرضياته حول قوانين اللغة التي يتلقاها، ثم يتخذ دليلا يؤيد هذه الفرضيات أو يرفضها. وقد طرح تشومسكي نظريته التوليدية التحولية التي اعتمد عليها في تفسيره لاكتساب اللغة. وتتمثل هذه النظرية في أن كل طفل يستطيع أن يميز بين بنيتين مختلفتين للجملة هما:

- البنية العميقة "Deep Structure"
- البنية السطحية "Surface Structure"

ويقوم الطفل بتكوين فرضيات عقلية أو ذهنية من الكلام الذي يسمعه ويبدأ بتعديل هذه الفرضيات و يتعرف تدريجيا على القواعد الصرفية والنحوية التي تربط المفردات بعضها ببعض في الجملة. أي يتعرف الطفل على

القواعد التحويلية للغة "Transformational Rules" وهي القواعد التي تحول البنية العميقة للجملة المخزونة ذهنيا الى التركيب السطحي الذي يعبر عنه بأصوات الكلام.

وثمة أدلة يستدل بها الفطريون على صحة نظريتهم وبطلان النظرية السلوكية في تفسير اكتساب اللغة منها:

- أن اختلاف كمية الكلام التي يتلقاها الأطفال في بيئتهم لا تؤثر كثيرا في التدرج الطبيعي الذي يسبغون عليها في اكتساب مورفيمات لغتهم ووظائفها. فالأطفال يسبغون في ذلك بشكل متشابه وفق تدرج طبيعي مقنن، ولا يتقدم اكتساب مورفيم (متأخر في التدرج المورفيمي) على مورفيم (متقدم في هذا التدرج). فالطفل لا يكتسب النمط قبل مواعده اكتسابا حقيقيا وإن تعلمه تعلمًا مصنوعًا سرعان ما ينساه.
- أن الأطفال يقعون في أخطاء لغوية منتظمة مهما كانت لغاتهم وبيئاتهم. ويقع الأطفال الناطقين باللغة الانجليزية مثلا بأخطاء متشابهة كالتي تتعلق بتصريف الأفعال و صيغ الجمع. فمثلا يستعمل الطفل "goed" كصيغة للفعل المضارع "go" بدلا من "went" لان الاستنتاج المنطقي يؤدي الى ذلك. والطفل يستمر في تطبيق قاعدة تصريف الأفعال المطردة "ed-" على تصريف الأفعال الغير مطردة ويستمر في بناء فرضياته حول تصريف الأفعال حتى يتخذ دليلا يؤيد فرضيته أو يرفضها. فلو كان الطفل يكتسب لغته بالسمع والتقليد و التكرار كما يزعم السلوكيون فلن يقع خطأ كهذا، لأن الناطقين بلغته (كالوالدين مثلا) لا يتفهمون بهذه الصيغة "goed" أي أنه لا يسمعها مطلقا في بيئته كي يقلدها.

وقد لا قت افتراضات تشومسكي وآراءه انتقادا من قبل بعض علماء النفس اللغوي الذين ذهبوا الى أنه لم ينجح العلماء الفطريون الا في اكتشاف عدد قليل جدا من العموميات في التراكيب اللغوية عند الأطفال بين اللغات المختلفة، ولذلك ليس هناك وجود واضح او واسع لهذه الافتراضات. وان الشيء الوحيد الذي يمكن افتراض وراثته هو ان الكائن البشري لديه استعدادة بيولوجيا للتفاعل مع البيئة لا وجود لتنظيمات موروثة تساعد على تعلم التراكيب اللغوية.

النظرية المعرفية/الوظيفية Cognitive/Functional Theory:

انتقد الوظيفيون تشومسكي في اساليبه التحليلية الموعلة في التجريد لتفسير اكتساب اللغة والتي اصبحت أشبه بالمعادلات الرياضية التي ربما أبعدت اللغة عن طبيعتها الفطرية التي تبناها تشومسكي نفسه ودعا إليها. فقواعد تشومسكي التوليدية التحويلية في نظر الوظيفيون قواعد تجريدية صورية تعتمد على المنطق أكثر مما تعتمد على الواقع اللغوي، وأنها تعالج أشكال اللغة و قواعدها ولا تغوص في الجوانب "المعرفية" الحقيقية للغة كالذاكرة و الادراك و الفكر و العاطفة والمعنى، ونحوها من الجوانب التي تتكامل لتكون "المعنى و الوظيفة اللغوية" وتحقق الهدف الحقيقي من الكلام وهو "التواصل".

ومن رواد النظرية المعرفية هو جين بياجيه Jean Piaget الذي اهتم بالنمو المعرفي كأساس لجوانب النمو المختلفة الأخرى ومنها النمو اللغوي. وأن الجوانب المعرفية في نظر بياجيه تسبق النمو اللغوي وليس العكس.

فالطفل يبني معارفه اللغوية من الصفر تدريجياً مستعيناً بقدراته المعرفية. وبناء على ذلك فإن الجانب الدلالي للغة "أي المعاني"، وليس الجانب البنائي، هو الذي يحدد مسار اكتساب اللغة أي يتحكم في النمو اللغوي لارتباطه المباشر بالنمو المعرفي.

وقد تبين للباحثين المعرفيين فيما بعد أن الطبيعة الوظيفية للغة تتجاوز الفكر المعرفي وبنية الذاكرة، وأن النظام السلوكي التبادلي يجري بين لغة الطفل النامية و لغة الكبار المكتملة في أثناء تعلم الطفل طبيعة الحياة و تكيفه مع مجتمعه. وقد أدت هذه النظرة الى الاهتمام بالوظائف التواصلية للغة، فتطلب هذا الاهتمام بدراسة هذه الوظائف و تحديدها. فاهتم العلماء المعرفيون الوظيفيون بتحديد ما يعرفه الأطفال، وما يتعلمونه من الآخرين، وما يعرفونه عن ترابط أجزاء الجملة و علاقات الجمل ببعضها، وطبيعة التفاعل بين المتحدث و السامع، ومفاتيح الحوار و مراعاة طبيعة المتخاطبين، والقدرة على تنويع الكلام حسب مقتضى الحال، ونحو ذلك من الوظائف الاتصالية.

من خلال العرض السابق لنظريات اكتساب اللغة نجد انهم يختلفون فيما بينهم حول تفسير اكتساب اللغة. ولكن نجد أن هناك اتفاقاً على أن هذا الاكتساب حقيقة واقعة من حيث طبيعته ومراحلها، وحول أهمية دراسة هذه المرحلة العمرية، منذ بداية استعداد الطفل الفطري لاكتساب اللغة حتى إعداد البيئة الاجتماعية والثقافة المحيطة بالطفل، وذلك من خلال النماذج اللغوية المختلفة والتي يتعامل معها الطفل. وكذلك الاهتمام بإعداد بيئة تعليمية غنية بالمواقف والخبرات الطبيعية والاجتماعية، وإتاحة الفرصة للحوار والمناقشة والتعرض للرموز اللغوية ومدلولاتها في ضوء المراحل النمائية لطفل ما قبل المدرسة. وطفل ما قبل المدرسة بحاجة إلى نظرية شاملة تسلم بوجود الاستعداد الفطري لدى الطفل مع وجود العوامل الأخرى المحيطة بالطفل من عوامل بيئية، وعوامل اجتماعية وثقافية وعامل النضج، للوصول إلى أفضل الأساليب لتعلم اللغة واكتسابها.¹

¹ د. عبد العزيز بن إبراهيم العصيلي (٢٠٠٦). علم اللغة النفسي: مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

Chomsky, N. (1957). *Syntactic Structures*. The Hague: Mouton.

Gleason, J. B. (2005). *The Development of Language*. Boston: Allyn & Bacon.

Skinner, B.F. (1957). *Verbal Behavior*. New York: Appleton.